

البحث عن النيجر

الشغف الاستعماري بالنهر الإفريقي العظيم

بقلم: ر. دبليو بوفيل

R.W Bovill (1933) Caravans of the Old Sahara. International Institute of African Languages and Cultures. London.



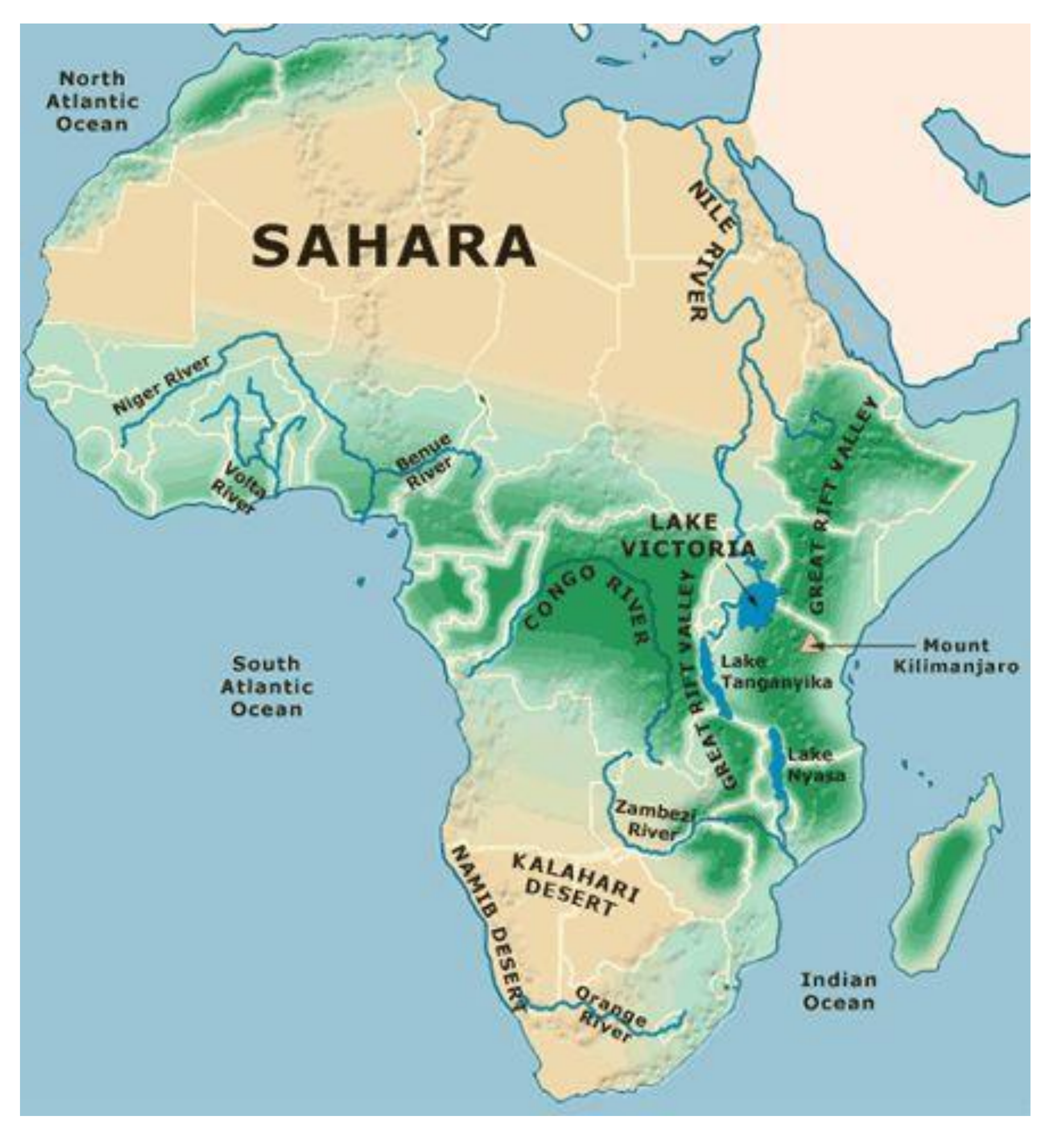
ترجمة: عزت زيان

مراجعة وتحرير: عاطف معتمد





كان هيرودوت (484 – 425 ق.م) أول من أشار إلى وجود نهر عظيم ينساب من الغرب إلى الشرق، ويقسم أفريقيا على نحو ما يفعل نهر الدانوب في أوروبا. وكان هناك اعتقاد بأن هذا هو نهر "النيجر" لدى بليني (23 – 79 م) وبطليموس (90– 168 م).



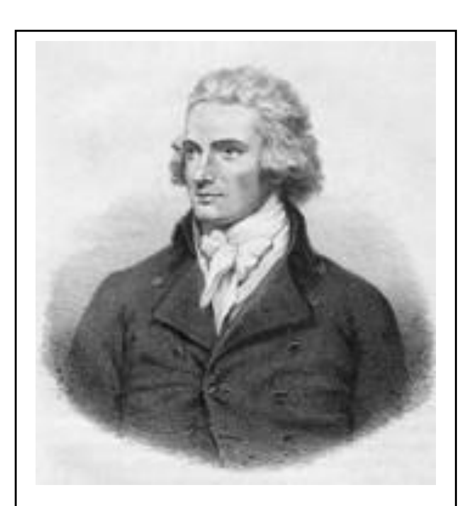
ومع ذلك، أعلن الإدريسي في القرن الثاني عشر (الميلادي) أن هذا النهر ينساب إلى الغرب، وبذلك خلط بينه (كما سيفعل البرتغاليون في القرن الخامس عشر) وبين نهر السنغال. وقد أطلق الإدريسي عليه اسم " نيل الزنج"، وجعل منبعه منبع نيل مصر.

ووصفه ابن بطوطة بأنه يجري نحو الشرق. وأعلن ليو الأفريقي أن النيجر ينساب من الشرق إلى الغرب. وعند نهاية القرن الثامن عشر، أي بعد ذلك بحوالي ثلاثمائة سنة تقريبا، ظل تقرير ليو التقرير الأول والأخير الذي حظى بانتشار واسع.

وقام التجار الفرنسيون في السنغال في القرن السابع عشر بمحاولات فاشلة عديدة للتغلغل في الداخل لاستغلال مناجم الذهب في بامبوك واكتشاف تمبكتو. وفي 1690، أقنعوا أنفسهم بأن السنغال كان نهرا مختلفا عن النيجر، وقد منح هذا الاكتشاف شعبية كبيرة لنظرية أن النيجر والنيل كانا نهرا واحدا. وليس مدهشا في ظل هذه المعلومات المتناقضة أن أصبح غموض مسار النيجر مصدر جدل كبير.

مانجو بارك والتجسس الجغرافي

بدأت الجمعية الأفريقية في إنجلترا عملها بإجراء بحوث مستفيضة حول الداخل الإفريقي بالتشاور مع القناصل الإنجليز والتجار المحليين المشاركين في تجارة القوافل في شمال أفريقيا. حيث قدمت هذه البحوث قدرا كبيرا من المعلومات غير الدقيقة التي تدعو إلى التأمل، ولكنها لم تفعل شيئا من أجل تقدم المعرفة الجغرافية. وعندما أدركت الجمعية عدم جدوى هذه البحوث، قررت بحكمة أن ترسل مستكشفين. وكان أول اثنين اختارتهما هما ليديارد Ledyard ولوكاس Lucas. حيث طلبت من الأول أن ينطلق من مصر بحثا عن النيجر، ولكنه مات في القاهرة قبل بداية رحلته. أما لوكاس ، الذي كانت لديه تجارب مثيرة مختلفة في المغرب، كرقيق أولا ثم كنائب قنصل بريطاني لاحقا، فقد قام بمحاولة فاشلة للبحث عن السودان من طرابلس.



مانجو بارك

وبعد الفشل في الشمال، قامت الجمعية بمحاولتها الثانية من الغرب. ففي 1790، أرسلت الرائد هوفتون Major Houghton إلى غامبيا بتعليمات لعبور القارة من الغرب إلى الشرق. وكان هدفه الأول يتمثل في تمبكتو، فسافر عبر غامبيا وعبر فاليمى

Faleme، ولكنه مات في جارا Jara، ربما على أيدي السكان المحليين. وكان موته ضربة قوية للجمعية، ولكنها قررت أن تواصل عملها عندما تجد شخصا جادا بما يكفي لمواجهة هذه المخاطر الحتمية.

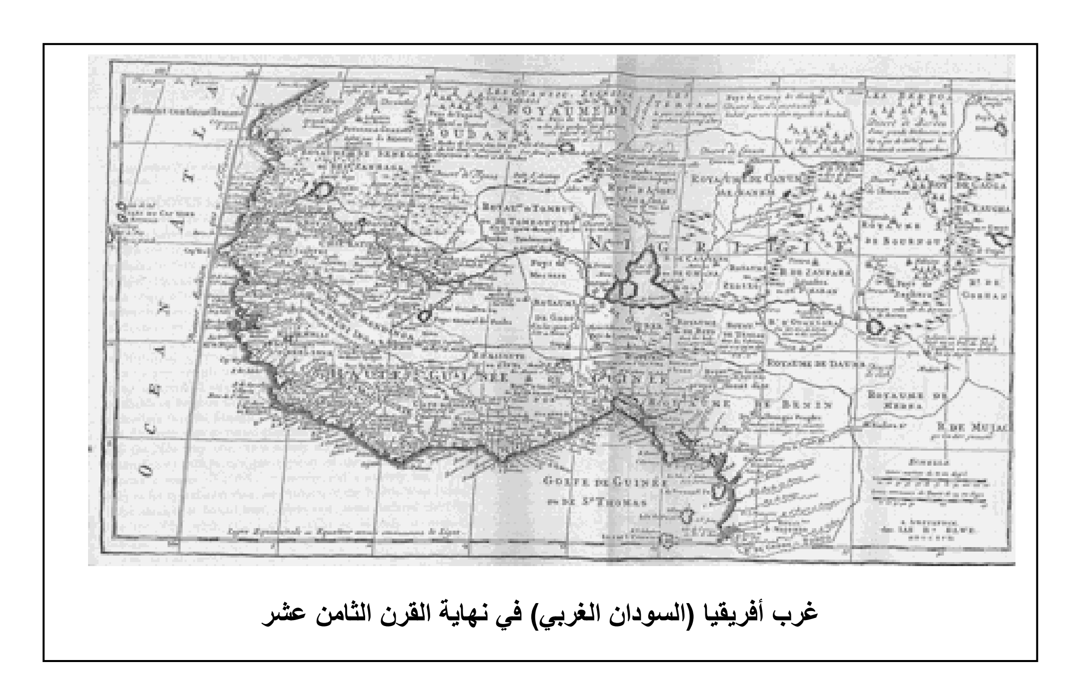
وفي هذه المرحلة، عرض مانجو بارك Mungo Park – وهو شاب اسكتلندي عمره عشرون سنة – تقديم خدماته التي قبلت بشغف. وأبحر من بورتسموث Portsmouth (جنوب إنجلترا) في مايو 1794، وقضى بعض الوقت في بيسانيا Pisania (على نهر غامبيا في غرب إفريقيا) يدرس لغة الماندنجو ويستكمل استعداداته للرحلة الخطيرة التي سيقوم بها. وكان الهدف الخاص للجمعية من إرساله يتمثل في تبديد الغموض الذي يحيط بمسار نهر النيجر.

وقد كتب بارك يقول: " تلقيت تعليمات صريحة ودقيقة. فقد أمرت بأنه عند وصولي إلى أفريقيا أذهب مباشرة إلى نهر النيجر. وأنه يجب أن أتأكد من منبع ومسار ومصب ذلك النهر. وأنه يجب أن أستخدم كل قدراتي لزيارة المدن أو البلدات الرئيسة المحيطة، خاصة تمبكتو والهوسا".

وقد غادر بيسانيا مبكرا في ديسمبر بصحبة خادم محلي وصبي. ومر بشمال بامبوك Bambuk وعبر نهر السنغال ووصل إلى جارا بسلام. ولكنه وجد نفسه هنا في خطر شديد. فقد وجد البلاد واقعة تحت سطوة عصابات السلب والنهب من البربر – ربما من البربر المستعربين من منطقة الحوض Hodh – حيث كان هناك اعتقاد بأن الرائد هوفتون قد لقي حتفه على أيديهم. ورفض خادمه أن يصاحبه لأبعد من هذا، وهكذا واصل رحلته مع الصبي المخلص كرفيقه الوحيد. ونظرا لتعرضه للسرقة والإهانة من كل من قابلوه، كان في حالة توقع دائم لنهاية عنيفة. حتى وصل في النهاية إلى قرية يسكنها الزنوج أبدت لهم ودا وكرما يتناقض تماما مع بربرية المور (المغاربة).

وبمجرد أن بدا أنه قد نجا من أعظم المخاطر، وعندما لم تكن هناك أية عقبات كبيرة تحول بينه وبين تحقيق هدف الرحلة، وقع في أسر عصابة من المغاربة الذين حملوه إلى معسكرهم حيث عانى كل أشكال الإهانة. وكتب لاحقا عن ذلك يقول: "لم تمر بي أية فترة في

حياتي بمثل هذا البؤس: فمنذ طلوع الشمس إلى غروبها، كنت مجبرا على أن أبدي ملامح هادئة أمام إهانات أوقح البرابرة على وجه الأرض".



غرب أفريقيا (السودان الغربي) في نهاية القرن الثامن عشر

ومرت أربعة أشهر تقريبا قبل أن يستطيع بارك الهرب. واستطاع بعد معاناة شديدة أن يصل إلى بلاد بامبارا Bambara حيث كانت قرى الزنوج الكريمة كثيرة. وأخيرا، وفي 20 يوليو 1796، بينما كان يقترب من سيجو Segu، عاصمة بامبارا، كتب يقول: "رأيت بسعادة لا تنتهي الهدف العظيم لمهمتي؛ نهر النيجر العظيم الذي بحثت عنه طويلا يلمع تحت شمس الصباح، وكان واسعا مثل نهر تيمز عند وستمنستر، وكان ينساب (نحو الشرق)". فأسرعت إلى شاطئه، وبعد أن شربت من مائه، قدمت شكري الحار في صلوات للرب العظيم خالق كل شيء، الذي كلل جهودي بكل هذا النجاح".

وواصل رحلته مع التيار، وعبر النهر إلى سيلا Silla، حيث تدهورت حالته الصحية، واستنفد موارده، بحيث أصبح واضحا أنه إذا كانت اكتشافاته يجب أن تصل إلى العالم، وألا تضيع بسبب موته، فإنه يجب عليه أن يعود بدون أي تأخير.

وقد كتب لنا: "بعد أن أرهقني المرض، وأنهكني الجوع والتعب؛ وصرت مجردا من ملابسي، وبدون أي شيء له قيمة يمكن أن أحصل به على الطعام والثياب والمتاع، بدأت أفكر بجدية في موقفي. وقد أصبحت مقتنعا الآن بسبب التجربة المريرة بأن العقبات التي تنتظر

تقدمي كان لا يمكن التغلب عليها ... وأدركت أنه لو حاولت الوصول حتى إلى جيني Jenne ... فإنني يجب أن أضحي بحياتي بدون تحقيق أي هدف، لأن اكتشافاتي ستختفي معي. وكانت التوقعات كئيبة في الحالتين".

وقبل أن يغادر بارك بلدة سيلا، جمع من التجار المغاربة والزنوج أكبر قدر ممكن من المعلومات عن باقي مسار النيجر. ولكن هذه الاستقصاءات كانت غير مفيدة، وفشلت في إلقاء الضوء على نهاية النهر الذي كان يقال بصفة عامة إنه كان "يجري إلى نهاية العالم".

وكانت عودة بارك عكس تدفق نهر النيجر صعبة بسبب حالة الفيضان الذي عم البلاد. حيث شق طريقه بصعوبة إلى باماكو Bamako، وكان يعول نفسه بكتابة وبيع التعويذات. ووصل فعلا إلى كاماليا Kamalia، حيث صادق تاجرا زنجيا يدعى كارفا توارا Karfa Tuara، كان يجمع الرقيق لبيعهم للتجار الأوروبيين في غامبيا. وظل بارك في حماية كارفا لما لا يقل عن سبعة أشهر. وخلال هذه الفترة، أصيب بالحمى، ولا شك في أنه كان مدينا بحياته للرعاية الكريمة من مضيفه. وعندما توقفت الأمطار، انطلق بارك مع قافلة رقيق كارفا إلى الساحل، حيث ضمن السفر على سفينة رقيق أمريكية أخذته إلى أنتيجوا Antigua (في البحر الكاريبي). ومن هناك انتقل إلى سفينة بريطانية وعاد إلى لندن في ليلة رأس سنة 1797 (أي بعد ثلاث سنوات من خروجه من وطنه).

وأثارت عودة بارك إلى إنجلترا مشاعر جياشة، بعد أن نُسي منذ فترة طويلة اعتقادا بموته. واستقبلت أخبار اكتشاف النيجر بأقصى حماس ممكن، ليس من جانب الجمعية الأفريقية فحسب، والتي بدأت بعد سنوات فشل طويلة في الشك فيما إذا كانت مساعيها ستؤتي ثمارها، بل ومن جانب البلاد كلها. ونشرت الجمعية في 1799 مذكرات بارك السردية عن رحلته التي طال انتظارها بشغف، مصحوبة بمذكرة طويلة عن النتائج العلمية لعمله، كتبها الرائد جيمس رينيل Major James Rennell, عضو الجمعية الجغرافية الملكية، وأبرز جغرافي في عصره. فبالإضافة إلى العمل الحريص لإبراز طرق بارك، وإعادة تركيب جغرافية أعالي النيجر في ضوء الاكتشافات الجديدة، انغمس رينيل بشجاعة في مشكلة مصب النهر. وبعد دراسة تقارير الإدريسي والمؤلفين العرب الآخرين، أعلن رينيل أنه: "إجمالا، لا يوجد شك في أن نهر جوليبا Joliba أو النيجر ينتهي إلى بحيرات، في الجزء الشرقي من أفريقيا، ويبدو أن هذه البحيرات تقع

في وانجارا وغانا". واعتبر رينيل هذين البلدين بمثابة "غور شمال أفريقيا، حيث تنتشر فيهما مياه النيجر على نطاق واسع حتى تتبخر. ومع وضع كل ثقل اسم رينيل وراء هذه النظرية، التي لم تكن جديدة في الواقع، فقد حظيت بانتشار واسع جدا. وبالرغم من أنها كانت بعيدة جدا عن الحقيقة، وتبدو سخيفة بالنسبة لنا الآن، إلا أنه كان هناك عذر كبير لخطأ رينيل. إذ كان ذلك يرجع أساسا إلى خلط ليو الأفريقي بوضع وانجارا في الهوسا، مما أربك الجغرافيين لثلاثة قرون تقريبا. وكان تفسير رينيل يعتمد على افتراض أن وانجارا الإدريسي ووانجارا عند ليو كانا مكانا واحدا. وكان معظم الارتباك مصدره قبول رينيل للاعتقاد السائد بأن مدينة كانو في الهوسا كانت بمثابة غانا القديمة، لأنها مثل وانجارا ليو كانت نقطة رئيسة في محاولته التوفيق بين جغرافية الدارسين العرب في العصور الوسطى ونتائج الاكتشافات الحديثة عند بارك والمستكشفين الآخرين.

وبينما كان بارك يستكشف النيجر، أرسلت الجمعية الأفريقية شابا ألمانيا يدعى فردرش هورنمان Frederic Hornemann، لغزو الداخل من خلال طرق قوافل الصحراء بداية من مصر. وعندما كان في القاهرة يستكمل استعداداته لمرافقة قافلة حجاج إلى فزان، وقعت القاهرة في قبضة نابليون الذي فعل كل ما في وسعه لتسهيل المشروع بشهامة واضحة. وتنكر هورنمان في زي تاجر مسلم، حتى وصل إلى مرزق Murzuk حيث قرر مواصلة رحلته إلى كاتسينا.

وجاء آخر اتصال منه من مرزق في أبريل 1800، حيث كان على وشك الانطلاق إلى بورنو. وقد تأكد بعد ذلك أنه وصل إلى النيجر، ربما عند ساي Say، وسار مع التيار حتى نوبي Nupe، وهناك لقي حتفه. وهكذا حرم العالم من ثمار واحدة من أعظم الرحلات في تاريخ استكشاف أفريقيا، والتي كان يمكن أن تضع هورنمن – لو ظل حيا – في المرتبة الأولى بين أعظم المستكشفين في العالم.

ومن خلال المساعي الحميدة لنابليون، فإن تقرير هورنمان عن رحلته حتى فزان، والذي احتوى قدرا كبيرا من المعلومات عن الداخل، وصل بأمان إلى الجمعية الأفريقية. ونشرت هذه الرحلة مع مذكرة لرينيل في 1802. وكان إسهام هورنمان الرئيس في الجدل الدائر حول نهاية النيجر يتمثل في إحياء النظرية القديمة عن التقائه بالنيل. وأصبحت نظرية رينيل البسيطة مهددة جدا ببدعة جديدة قدمها رينيل نفسه حين ذهب إلى أن النيجر هو الكونغو، ولم يكن معروفا من

الأخير سوى مصبه الواسع. ولم يجد رينيل صعوبة كبيرة في أن يستمد من تقرير هورنمان أدلة حديثة على أن مصب النيجر يقع هناك (عن عبر التبخر) في بلاد الوانجارا".

وهكذا تشجعت الحكومة البريطانية على الاهتمام باستكشاف أفريقيا بفضل الجمعية الأفريقية. ففي 1803، تقرر إرسال بعثة لاستكشاف النيجر من الغرب والإبحار فيه حتى نهايته. وتولى مانجو بارك – الذي تزوج واستقر في حياته ممارسا لمهنة الجراحة – مهمة قيادة هذه البعثة. وقدم مذكرة إلى المكتب الاستعماري اقترح فيها أن يشق طريقه أولا إلى سيجو، وهناك يصنع قاربا يبحر فيه مع النيجر، ويجتاز جيني وكابارا مستهدفا الوصول – عبر ممالك الهوسا، نيفي Nyffe (نوبي Nupe) وكاسنا (كاتسينا) – إلى مملكة وانجارا. فإذا انتهى النهر هناك، فإنه يمكن أن يرجع إما عكس التيار أو عبر الصحراء، أو عن طريق النيل، أو ربما عبر خليج بنين. أما إذا ثبت – كما كان يعتقد هو بشدة آنذاك – أن النيجر هو الكونغو، فإنه سيتبعه حتى نهايته.

وفي يناير 1805، وبعد عدة مرات من التأجيل المثير، أبحر بارك من بورتسموث. وكان بصحبته صديقان اسكتلنديان وخمسة صناع مراكب ليقوموا بصناعة القارب في سيجو. وفي جوري Goree (جزيرة في غرب السنغال)، انضم إلى البعثة موكب مؤلف من ضابط وخمسة وثلاثين رجلا من الحامية البريطانية، واثنين من البحارة. وباستثناء دليل من الماندنجو، اسمه اسحق Isaaco، لم يقبل أي محلي آخر الانضمام إلى البعثة.

وبمحاولة التوغل في داخل أفريقيا ببعثة من ستة وأربعين أوروبيا، غير مصحوبين بخدم محليين، ارتكب بارك خطأ خطيرا. وتعرض أيضا لعقبات خطيرة بسبب عدم ملاءمة القوات التي كانت صحتها متأثرة بشدة سلفا بسبب الأوضاع المرعبة التي ترتبط بالخدمة العسكرية في المناطق الاستوائية. وهكذا سرعان ما واجهت البعثة سوء الحظ. إذ إن المناخ الذي يسبب الوهن، وعدم الراحة من العمل الوضيع المرهق، وعدم ترحيب السكان المحليين، أدى إلى تقويض قدرة هذه البعثة على مقاومة الأمراض. فمنذ بداية الرحلة، بدأ الرجال في الانهيار من الإسهال والحمى، وخيم اليأس على جميع الأفراد، باستثناء بارك الذي حافظ تصميمه الجاد على تقدم الرحلة نحو هدفها.

وكان المسار الذي اتبعته البعثة هو نفس المسار الذي عاد منه بارك في رحلته السابقة تقريبا. فبعد عبور فاليمي Faleme مباشرة، هطلت الأمطار الغزيرة عليهم وتكررت حالات الوفيات بصورة مزعجة. وكان أكثر من نصف من كافحوا مرضى. وكانت عصابة من قطاع الطرق تتعقب البعثة، وكانت مستعدة دائما لذبح من يتخلف عنها، أو الإمساك بأي شخص يتأخر عنها. وفي الليل كان المسافرون المنهكون يقعون فريسة دائما للصوص.

وفي أغسطس، استمدت البقية المنهكة من البعثة بعض السرور من الوصول إلى مدى رؤية النيجر. وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى باماكو، كان الصناع وثلاثة أرباع الجنود قد ماتوا. وكافح الباقون مع التيار حتى سانساندنج Sansanding، حيث شرعوا في العمل لبناء قارب لاستكمال الرحلة به مع النيجر. وبحلول منتصف نوفمبر، كانت استعدادات بارك قد اكتملت. وفي 17 نوفمبر 1805، كتب رسالته الأخيرة إلى لورد كامبدن Lord Campden، السكرتير الاستعماري، من على المركب الشراعي جوبليا Joblia، الراسي قبالة سانساندنج:

حيث كتب: "يحزنني القول إنه من بين الأربعة والأربعين أوروبيا الذين غادروا غامبيا في صحة جيدة، قد بقي منهم خمسة فقط أحياء حاليا، وهم ثلاثة جنود (أحدهم مختل عقليا) والملازم مارتن، وأنا.

"وأرجو سيدي ألا يذهب بك هذا التقرير إلى اعتبار أن الأمور أصبحت في حالة بائسة، ولكنني أؤكد لكم أنني بعيد جدا عن اليأس. فبمساعدة أحد الجنود، حولت قاربا كبيرا إلى مركب شراعي معقول، وقد رفعت على سطحه اليوم العلم البريطاني، وسوف أبحر شرقا بعزم ثابت على اكتشاف نهاية النيجر أو الهلاك دونه. ورغم أني لم أسمع شيئا يمكن أن أعتمد عليه لتوقع المسار البعيد لهذا التيار العظيم؛ إلا أنني أكثر ميلا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن أن ينتهي في أي مكان سوى البحر.

وواصل خطابه قائلا:

"لقد مات صديقي العزيز السيد أندرسون، وكذلك مات السيد سكوت؛ ولكن بالرغم من ذلك، وبالرغم من أنني شخصيا كنت شبه ميت، إلا أنني سوف أواصل؛ وإذا لم أستطع النجاح في تحقيق هدف رحلتي، فإنني سأموت في النهاية في نهر النيجر".

وكان هذا الخطاب، وخطاب آخر إلى زوجته حمله إلى الساحل المخلص إسحق، آخر اتصالين تم تلقيهما من بارك. فقد كان يتوقع أن يعود إلى انجلترا في مايو أو يونيو من السنة التالية. وعندما بدأت سنة 1807 بدون تلقي أية أخبار، أرسلت الحكومة إسحق إلى النيجر للاستقصاء. وفي سيجو كان محظوظا جدا لمقابلة الدليل الذي انطلق مع بارك من سانساندنج.

وحسب رواية هذا الرجل، فإنه بالرغم من المحاولات المتكررة من المحليين المعادين لاعتراض البعثة، إلا أنهم وصلوا بأمان إلى ياوري Yauri على حدود الهوسا. حيث انتهى اتفاقه مع بارك هناك وتركهم. ومع ذلك، علم أن بارك ورفاقه واصلوا رحلتهم مع التيار، غير مدركين للمنحدرات النهرية الخطيرة عند بوسا Busa التي كانت قريبة منهم. وعندما وصلوا إلى هذه المنحدرات وجدوا الشاطئ مليئا بالمحليين المسلحين الذين جعلوا النزول على الشاطئ مستحيلا. واقتحم القارب الذي جرفه التيار أخطر القنوات الثلاث وتحطم بين صخرتين. وحسب رواية الدليل، فإن المحليين عندما شاهدوا مأزق الأوروبيين هاجموا قاربهم. وبذل بارك والرجال البيض الثلاثة الآخرون الذين بقوا من البعثة الأصلية آخر جهد يائس لإنقاذ أنفسهم بالقفز في النهر، ولكن الأربعة لقوا حتفهم غرقا.

وهكذا كانت القصة الحزينة التي عاد بها إسحق إلى الساحل. ولن يعرف أحد مدى اقترابها من الحقيقة. قد أساء فهم المحليين الودودين الذين خرجوا للترحيب به، واعتبرهم أعداء يريدون تدميره. وكذلك هناك شكوك في المشهد المأساوي الأخير في بوسا. فمن المؤكد أن بارك ورفاقه هلكوا هناك، ولكن البعض يعتقدون أن الإيماءات العنيفة للمحليين المسلحين الذين كانوا محتشدين على الشاطئ كانت تهدف فقط إلى تحذير الرجال البيض من المخاطر التي أمامهم. وفي مقابل هذا، يجب أن نضع في اعتبارنا الرفض الشديد للمحليين في السنوات الأخيرة لمناقشة هذا الحادث مطلقا.

لقد كانت بعثة بارك الثانية تمثل فشلا مأساويا بجميع المعاني. فلم يفلت من الموت فرد واحد من البعثة، وبالرغم من الخسائر البشرية الفادحة والمسافة البعيدة التي قطعها بارك، لم يتم إلقاء ضوء جديد على لغز مصب نهر النيجر. وبسبب الاعتقاد الخاطئ بأن بوسا كانت تقع على بعد ثمانين ميلا فقط جنوب تمبكتو، بدلا من ثمانمائة ميل، لم يتم التعرف لا على اتجاه

النهر ولا على حجم إنجاز بارك. وفي تلك الأثناء، كانت نظرية أن النيجر والكونغو كانا نهرا واحدا، تحقق انتشارا واسعا بسبب قدرة مستكشف عظيم على تأييدها.

خطوات على طريق كشف اللغز

في 1803، أعلن جغرافي ألماني يدعى رايشارد اقتناعه بأن النيجر يصرف مياهه عبر قنوات دلتا كبيرة في خليج بنين.[1] ولكن نظرا للاعتقاد القديم السائد بأن جبال الكونج Kong Mountains التي قال ليو الأفريقي إنها تقع جنوب مالي، كانت تمتد بعيدا نحو الشرق لدرجة أنها تحول دون إمكانية أن يصل النيجر إلى خليج بنين، فقد رفض المعاصرون فرضية رايشارد. وبعد ذلك ببضع سنين، كان جيمس ماكوين James McQueen – وهو أحد الأثرياء الأوربيين المقيميين في جزر الهند الغربية – مهتما بالنيجر وقد أثاره عمل مانحو بارك. وقد قام رايشارد باستقصاءات بين رقيق أفريقيا الغربية العاملين في خدمته. وكان من بينهم البعض من الماندنجو والهوسا، حيث جمع منهم معلومات كثيرة عن النيجر، وكان يقارنها بدقة شديدة مع ما كان معروفا من التجار العرب والأوروبيين عن سواحل أفريقيا الشمالية والغربية. ونتيجة لهذه البحوث، أصبح ماكوين قادرا على إعادة تركيب جغرافية المناطق الداخلية من غرب أفريقيا وإظهار – من خلال مجموعة مقنعة من الحقائق – أن نهاية نهر النيجر لا يمكن أن تكون في أي مكان سوى خليج غينيا. وكان أيضا أول من أبلغ عن وجود الرافد الكبير للنيجر والذي يعرف اليوم باسم البينيو Benue. ولكن العالم كان متأثرا كثيرا بالمآسي المتكررة في هذا المجال، لدرجة أنه لم يلتفت إلى نتائج مثل هذا الباحث، وهكذا ضاعت ثمار عمل ماكوين.

وفي تلك الأثناء، لم تكن هناك ندرة في المغامرين المستعدين للخروج إلى أفريقيا ومواصلة عمل مانجو بارك. ففي 1810، تأثرت لندن بوصول ألماني متحمس يدعى رونتجن Roentgen، كان قد أجريت له عملية الختان أولا[*]، ثم كان يتدرب على تناول العناكب والنمل والجراد استعدادا لرحلة إلى تمبكتو. وبالرغم من هذه الاستعدادات الكبيرة، إلا أنه فقد حياته بعد أن وطئت قدماه الأراضي الأفريقية بفترة قصيرة.

[*] ليبدو مسلما إن تم أسره من قبل العرب والمسلمين في غرب أفريقيا (المترجم).

وفي 1816، حاولت الحكومة البريطانية اختبار نظرية النيجر والكونغو بإرسال بعثات إلى كل من هذين النهرين. وكانت البعثة التي قادها الكابتن توكي Capt. Tucky ستصعد مع الكونغو، وكانت الأخرى بقيادة الرائد بيدي Major Peddi والكابتن كامبل Capt. Campbell كمساعد له ستتبع المسار الذي اتبعه مانجو بارك إلى الداخل وتهبط مع النيجر. وقد انتهت البعثتان بنتيجة كارثية دون إلقاء أي ضوء جديد على مشكلة النيجر.

وفي 1818، قامت الحكومة البريطانية – التي كانت تستفيد من العلاقات الودية التي أقامتها حديثا مع والي طرابلس، الذي كان نفوذه يمتد كثيرا إلى الجنوب – بإرسال بعثة لمحاولة غزو الصحراء من هذه البلاد. وكانت هذه البعثة بقيادة السيد رتشي Mr. Richie، والكابتن ليون Capt. F. G. Lyon كمرافق، وما إن تخطت البعثة مُرزق حتى مات رتشي. وحسب رواية ليون، نعرف أنهم لم يفقدوا الأمل تماما في الوصول إلى أي شيء عن بارك الذي كان البعض يعتقد أنه "لا يزال محتجزا لدى السلطان (في تمبكتو) بسبب مهارة بارك الطبية في الجراحة". بل إن استقصاءات ليون الخاصة حول النيجر قادته إلى استخلاص أنه "بطريقة أو بأخرى، كانت هذه المياه تنضم إلى نيل مصر العظيم، في جنوب دنقلا".

وتظهر تعليقات ليون على وانجارا مدى سهولة احتمال التضليل الذي تسبب فيه ليو الأفريقي بسبب الانتشار الواسع لاستخدام اسم وانجارا، وكيف لا يزال المحليون يربطون بينه وبين التجارة الصامتة في الذهب.

حيث يخبرنا بأن: "وانجارا عبارة عن مكان لا يمكن أن نحصل على تقرير دقيق عنه؛ ومع ذلك، يفترض بصفة عامة أن يكون منطقة منخفضة ومغمورة أحيانا. حيث يقول أحد الأشخاص إنها على بعد عشرين يوما جنوب تمبكتو؛ ويقول آخر إنها جنوب كاشنا Kashna؛ ويؤكد آخرون أنها بعد واداي Waday؛ ولكن يستحيل حسب التقارير المختلفة المتوفرة لدينا أن نكون أية فكرة عن موقعها الحقيقي، أو حتى وجودها أصلا.

"إذا كان هناك في الواقع ثلاثة أماكن بهذا الاسم، ألا يحتمل أن يكون هذا اسما عاما يطلق على الأهوار والمستنقعات؟ ففي الحالة التي كان الحديث فيها عن وجودها بعد تمبكتو، يقال إن العاصمة تسمى باتاجو Battagoo، وهي مدينة كبيرة يقال إن حولها الكثير من الذهب.

وطبقا لمن قدموا المعلومات، هناك شعب ما يسكن قرب هذا المكان، ويقال إنه يتاجر ليلا. إذ إن الذين يأتون للتجارة مقابل الذهب، يضعون سلعهم في كومات، ويذهبون. وفي الصباح يجدون كمية معينة من تبر الذهب موضوعة أمام كل كومة، فإذا اقتنعوا بأن هذه الكمية كافية فإنهم يأخذونها ويتركون السلع، أما إذا لم يقتنعوا بها، فإنهم يتركون الاثنين حتى تضاف كمية إضافية من الخام الثمين. ويفترض كثيرون أن هؤلاء المتاجرين في تبر الذهب عبارة عن شياطين، وهم مغرمون كثيرا بالأقمشة الحمراء، فهي السلعة المفضلة لديهم".[3]

وبالرغم من أن نتائج بعثة رتشي وليون كانت متواضعة، إلا أن الحكومة البريطانية اعتبرتها مشجعة بصورة تكفي للقيام بمحاولة أخرى من الشمال. ففي 1821، ارسلت بعثة ضمت د. دنم Dr. Denham، الملازم كلابرتون Lieut. Clapperton، د. أودني Oudney، الذي أصبح وكيلا سياسيا في بورنو، وصانع سفن اسمه هيلمان Hillman. وعندما وصولوا إلى مُرزق، وجدوا جميع العقبات التي تحول دون مواصلة تقدمهم. وبعد شهور من الانتظار، تشجع والي طرابلس على تقديم الدعم اللازم، وفي فبراير 1823، واصلوا رحلتهم ووصلوا إلى بحيرة تشاد حيث كانوا يأملون في أن يجدوا مدخلا إلى حل مشكلة النيجر على الأقل. ويخبرنا دنم بأن: "قلبي كان يقفز داخلي من المشهد، لأنني اعتقدت أن هذه البحيرة ستكون المدخل إلى الهدف العظيم للبحث". وبعد ذلك بأسبوعين، دخلوا كوكاوا Kukawa، عاصمة بورنو، حيث قوبلوا بترحاب محمد الكانمي El Kanemi، الذي كان قد وصل إلى سدة الحكم في ذلك الوقت.

وغامر دنم بمرافقة حملة من الرقيق للإغارة على الوثنيين في ماندارا Mandara الذين كانوا لا يزالون يخضعون اسميا لفولاني سوكوتو Sokoto. ولكنه لسوء حظه وقع في أيدي الوثنيين، ولكنه بالرغم من جراحه وعريه، استطاع أن يهرب بينما كان من أسروه يتشاجرون على توزيع ثيابه.

وفي تلك الأثناء، انطلق كلابرتون مع أودني لاستكشاف الهوسا والبحث عن النيجر في الغرب. فمات أودني قرب كاتاجوم Katagum، ولكن كلابرتون الذي كان مريضا أيضا واصل رحلته بمفرده ووصل كانو في فبراير 1824.

ويخبرنا كلابرتون بأنه: "ارتديت الزي البحري، وجعلت نفسي أنيقا بالقدر الذي سمحت به الظروف. ... وفي الحادية عشرة، دخلت كانو، المركز التجاري العظيم لمملكة الهوسا؛ ولكن بمجرد أن اجتزت البوابات حتى شعرت بخيبة أمل كبيرة؛ لأنني حسب وصف العرب الرائع لها، توقعت أن أرى مدينة ذات عظمة مذهلة: ولكنني على العكس وجدت المنازل على بعد ربع ميل تقريبا من الأسوار، وكانت متناثرة في مجموعات منفصلة في أجزاء عديدة، بين برك كبيرة من المياه الراكدة. وكان يمكن أن أتجنب كل المشقة التي تكبدتها في زينتي، لأنه لم يلتفت ولا فرد واحد حوله لينظر إلي؛ ولكنهم كانوا جميعا منصرفين إلى شئونهم، مما سمح لي بالمرور بدون التفاتة أو تعليق".

ومع ذلك، رحب به الأمير – الذي أرسل إليه الكانمي رسالة تعارف – ترحيبا حارا. وفي كانو وصل كلابرتون إلى الاعتقاد بأن النيجر، أو كوورا Kworra كما كان المحليون يسمونه في الجزء الأدنى، كان ينساب إلى البحر في مكان يدعى راكاه Rakah في يوروبا، التي كانت تزورها سفن المسيحيين. وكان يرجع تحفظ السكان المحليين إلى خوفهم من أنه إذا عرف الغرباء مسار الكوورا، فإنهم سوف يشقون طريقهم من الساحل إلى الداخل ويسيطرون على البلاد. وفي كانو، سمع أن هورنمان مات من الإسهال في نوبي.

وسافر كلابرتون من كانو غربا إلى مدينة سوكوتو، حيث كان استقباله يشبع غروره. ومن المدهش أن نجد كلابرتون، الذي كان قد وصل لتوه من كانو التي كانت ذائعة الصيت، يعتبر سوكوتو المدينة الأكثر سكانا التي رآها داخل أفريقيا، وهو الرأي الذي ظل يحتفظ به حتى زيارته الثانية بعد بضع سنوات. واستقبل محمد بيلو Bello كلابرتون استقبالا حارا، بالرغم من انزعاجه قليلا من فرار دنم. فقد كان مهتما بإقامة علاقات ودية مع البريطانيين الذين كان يريد أن تقوم سفنهم بزيارة راكاه وفتح تجارة مع بلاده. وقد ألح على كلابرتون بأن يقوم ملك إنجلترا بإرسال قنصل وطبيب للإقامة الدائمة في سوكوتو.

وكان كلابرتون يهدف إلى مواصلة رحلته إلى ياوري ونوبي لاستكشاف النيجر، ووعد بيلو بمساعدته. وللأسف، فإن التجار العرب في سوكوتو – الذين رأوا أن مشروع محمد بيلو سيهدد مصالحهم الخاصة عند فتح البلاد للتجارة البريطانية – أقنعوا السلطان بتغيير موقفه، مما

جعل كلابرتون يواجه كل أنواع العقبات في طريق تقدمه. بل إن شرطه المتكرر على أن جائزة صداقة ملك إنجلترا ستتمثل في إلغاء تجارة الرقيق مع الساحل، قد ساهم كثيرا في صعوباته.

وبناء على طلب كلابرتون، أعد محمد بيلو خريطة توضح مسار النيجر الأدنى. وبالرغم من أن السلطان قرر أنه ينساب إلى البحر عند فونداه Fundah، التي قال إنها تقع تحت ميناء راكاه، إلا أن الخريطة أظهرت أنه ينساب إلى نيل مصر. وكان هذا يتفق مع ما علمه دنم في بورنو، ولكن كلابرتون كان لا يزال يشعر بأن نهاية النيجر كانت تقع في خليج غينيا.

ونظرا لأنه اضطر إلى التخلي عن مشروع الوصول إلى مصب النيجر، فقد انضم إلى دنم في بورنو وعاد معه إلى انجلترا. حيث حمل رسالة ودية من محمد بيلو إلى ملك إنجلترا جورج الرابع، حيث وافق فيها سلطان الفولاني على حظر تصدير الرقيق إلى الساحل، واقترح أن تبحر سفينة بريطانية إلى راكاه لفتح التجارة مع بلاده.

وكان لدى الحكومة البريطانية جميع الأسباب التي تجعلها راضية عن العمل الرائع الذي أنجزه كلابرتون ودنم. فلم يقتصرا على إضافة الكثير إلى المعرفة الجغرافية بالداخل فحسب، ولكنهما قدما تقارير جيدة عن فرص التوسع التجاري الذي أصبح الآن السبب الرئيس لاهتمام الحكومة باستكشاف أفريقيا.

وبالتالي، أرسلت الحكومة في 1825 بعثة أخرى بقيادة كلابرتون بصحبة أربعة أوروبيين آخرين منهم خادمه ريتشارد لاندر. ولكنهم لسوء حظهم لم يجدوا أحدا على الساحل قد سمع عن راكاه أو فونداه – اللذين قال عنهما محمد بيلو إنهما كانا ميناءين بحريين – ولذلك نزلوا في باداجاري Badagary وانطلقوا إلى الشمال. وقد هبط أحد رفقاء كلابرتون في وهيده Whydah ولم يسمع أحد عنه شيئا بعد ذلك، ومات اثنان آخران سريعا بعد مغادرة باداجاري. وهكذا تبقى لاندر فقط، حيث سافر معه شمالا عبر مدينة أويو Oyo العظيمة أو كاتونجا Katunga في يوروبا إلى النيجر، حيث وصلا إليه عند بوسا، ولكنه لم يستطع الحصول على أية معلومات عن موت بارك.

ومن خلال مرور رحلة كلابرتون عبر نطاق الغابات داهمتهما الآفات والحشرات وأصابتهما بالمرض ، لدرجة أنه لولا أنهما كانا رجلين مصممين لكانا قد عادا أدراجهما. فقد شقا



طريقهما إلى كانو، وبعد قضاء شهر هناك، انطلق كلابرتون بمفرده إلى سوكوتو، حيث قوبل بفتور يتناقض مع المودة التي تمتع بها في الزيارة السابقة. وكان هذا التغير يرجع أساسا إلى إشاعة (ربما أطلقها أعداؤه القدامى من التجار العرب) أن الإنجليز يهدفون إلى تجريد الفولاني من سلطتهم وأن كلابرتون كان جاسوسهم. وسرعان ما انضم إلى كلابرتون خادمه لاندر الذي وجد سيده في حالة صحية متردية وسرعان ما لقي حتفه في 13 أبريل 1827 ودفن في قرية جانجيبي Jangebe المجاورة. وبالرغم من أن إنجازاته كانت أقل تأثيرا من إنجازات مواطنه مانجو بارك، إلا أن إسهاماته في المعرفة البشرية لم تكن أقل أهمية. فقد سافر في رحلتيه عبر القارة من طرابلس إلى ساحل غينيا، وكان أول أوروبي يصل إلى السودان الغربي من الجنوب.

وعاد ريتشارد لاندر في حالة صحية متدهورة ويأس شديد إلى كانو. ومن هناك انطلق إلى فونداه، التي كانت تقع عند التقاء النيجر وبينيو، حيث كان يرمي إلى الانطلاق ومتابعة النهر حتى نهايته التي كان يعتقد – مثل سيده – أنها تقع في خليج بنين. وعندما اقترب من النهر متوقعا حل المشكلة الجغرافية الكبرى في عصره، اضطر إلى العودة إلى زاريا Zaria. ووصل فعلا إلى الساحل عند باداجري ولحق برحلة بحرية أوصلته إلى إنجلترا في أبريل 1828.



خريطة اليوم لنهر النيجر مقسما عبر الحدود السياسية لدول غرب أفريقيا

وكانت هذه البعثة مكلفة من الناحية البشرية ومخيبة من حيث النتائج. حيث تبددت آمال إقامة تجارة مع الفولاني، ولم يتم إلقاء ضوء جديد على غموض النيجر. وبالرغم من أن كلا من كلابرتون ولاندر كانا على قناعة بأن النهر ينساب إلى خليج بنين، إلا أن الكثيرين لا يزالون

يعتقدون أن "سلسلة عميقة من جبال الجرانيت" كانت تعترض النهر بين البحر وأدنى نقطة معروفة في مساره، ولذلك رفضوا قبول مثل هذه الفرضية. وكان من بين هؤلاء الجنرال السير روفاني دونكن General Sir Rufane Donkin، الذي نشرت رسالته في 1829، بعنوان "أطروحة عن المسار والنهاية المحتملة للنيجر"، والذي أضاف قدرا من الدعابة إلى الجدل الدائر. وبغض النظر تماما عن كل ما حققه المستكشفون العظام في هذا المجال مؤخرا، إلا أنه حاول أن يثبت بقدر كبير من الاقتباسات من الأعمال التقليدية أن النيجر ينساب إلى البحر المتوسط في خليج سرت! وكان هذا أمرا مبالغا فيه، حتى بالنسبة إلى "المجلة الربع سنوية" التي اهتمت كثيرا بهذا الجدل وتناولت بحماس كل نظرية على التوالي.

وكان ريتشارد لاندر – الذي لم يكن يتمتع بمزايا المولد أو التعليم – يتطلع إلى العودة إلى أفريقيا لاستكمال العمل الذي بدأه في خدمة كلابرتون. فعلى أمل الحصول على مكافأة زهيدة قدرها مائة جنيه إسترليني عند عودته، ومبلغ ربع سنوي قدره خمس وعشرون جنيها إسترلينيا لزوجته خلال غيابه، دخل في خدمة الحكومة وانطلق إلى أفريقيا بصحبة أخيه جون الذي لم يُعط وعدا بأي نوع من التعويض. وكانت أوامره تتمثل في شق طريقه إلى بوسا، ومن هناك يتبع النهر حتى فونداه، حيث يجب عليه أن يرى ما إذا كان النهر يتدفق إلى أية بحيرة أو مستنقع. وإذا كان بوسعه أن يحل لغز وانجارا القديم، فكان عليه أن يتبع النهر إلى البحر، أو إلى بحيرة تشاد إذا اتجه النهر شرقا.

وقد وصل الأخوان لاندر إلى بوسا في منتصف 1830، وبعد تأخير طويل انطلقا مع النيجر. ووصلا إلى ملتقى بنيو بلا معارضة، ولكن قرب أسابا Asaba أسرتهم قبائل الإيبو Ibos. وأخيرا استعادا حريتهما وشقا طريقهما مع النهر إلى البحر. وعادا إلى انجلترا في يونيو 1831، وأعلنا حل المشكلة التي حيرت العالم لعدة قرون.